الايمان

قصيدة لإلفونس دى لامرتين

أيها العَدَم ! أيتها الهاوية الصامتة التى خرجتُ منها ، وسأعود اليها ، لماذا تركت المرءَ يفلت منك ؟ فقد كنتُ أنام فى أحضانك نوماً عميقاً ، لا تزعجه أحلام ، ولا تُخيفه يقظة ، نوماً هنيئاً وأنا ملتحفٌ بالنسيان الابدى فى أزلية اللا نهاية ، دون أن ترى عيناى هذا النهار الزائف الذى أمقتُه ، وهذه الحياة التى لا أجدفيها ، غير شقاء يتكدس فوق شقاء ، وتعاسة تَزحم تعاسة .

لقدشاءت الاقدار أن آتى إلى هذا الوجود ، ولو خُيِّرْتُ لآثرتُ البقاء فى غياهب العَدَم ، ولكن أنّى للانسان أن يؤوبه برأيه ، فقد حُكم عليه أن يرى الحياة ، ولا مَرَدّ لحكم القضاء ، فما ذلك الشَفَق البادى لاول مرة ؟ وتلك اليقظة المضطرَبة ، يقظة المخلوق الذى يجهل نفسه ؛ وهذا الفضاء الممتدُّ أمامه ؟ وهذه النظرات العميقة ، التى يلقيها المرءُ مسائلاً السماوات ؛ وهذا الافتتان المُبْهَمْ والامل الذى يملأ الجوانح ؟ . . . كل هذا يَبهر بصره ، وهو لم يزَل بعد على عتَبَة الوجود ، وفى فجر الحياة .

سلاماً ! أيها المقرّ الجديد حيث أَلْقانى الزمن ، سلاماً أيتها الكُرَة الشاهدة لما يخبّىءُ لى المقدور بين طيّات الغَيب ، سلاماً أيها المصباح المقدس المغذّى للطبيعة ، أيتها الشمس الحبيبة الاولى لكل كائنٍ حىٍّ ، سلاماً أيتها السماء الحاجبة وجه الخالق العظيم ، وأنت أيتها الارض

مَهْد الانسان . لَأَنت قصر مُنِيف يقضى فيه المرء حياته الفانية ، ثم ينحلُّ غلافه الى ذرّات ، تندغم فى ذراتك .

سلاماً أيها الانسان ، الآتى الى هذا العالم الفانى على كَرَهٍ منك ، انك خَدِيني واخى ، وانتِ أيتها الكائنات ، يا أداةَ سعادتى وهنائي ، — اذا كان ثَمَّ هناء وسعادة فى هذا الوجود — سيرى فى الطريق الذى خُطَّ لكِ ، غير عابئة بشعور يتألم ، وآمال تتحطّم ، فقد أضفتُ بمجيئي اليكِ ، قلباً الى تلك القلوب الكسيرة ، وفؤاداً الى تلك الافئدة المنسحقة .

انه لحكم لذيذ ، يستأثر اللب ، ويستهوى المشاعر ، ولكنه : وا أسفاه ! لم يخرج عن كونه حلماً فقد بدأ قريبا ، وانتهي وَشيكاً ، لان الآلام المبرِّحة فتحت لى قبل الاوان ، أبواب القبر ، الذى يتطلّع الىَّ ويدعوني ، فسلاماً يا يومى الاخير ، وكن لي أجمل يوم اكتحلت به عيناى فى رِحلتى الارضية .

لقد عشتُ ؛ لقد قطفتُ مفازة هذه الحياة ، حيث تذبل دائما تحت قدمىَّ ، كل زهرة من أزاهير الهناء ، حيث دائماً الامل يخدع الاماني ، مظهراً لى السعادة فى أفق خافق مضطرب ، حيث أنفاس الموت الحارّ تُيبس تحت شفتىّ كل الينابيع العذبة الباردة .

ولقد أرى غيرى يذوب حسرة على ما ولّى من حياته ، فيلتمس من الماضى عَوْداً ؛ باكياً على فجر ربيعه الآفل ، نادبا الاوقات التى اقتطعها الزمن من حياته ، كأن العيش بهجة وصفاء ، لا تعاسة وشقاء .

أما أنا ، فلو أنّ القدَر بلّغنى منى النفس وامانيها ، وحبانى

بالثراء والسؤدد والمجد ، واعطانى كل مفاخر العالم ، ومنحنى الحكمة والجمال والصبا الخالد ، لأعرضت عن المنح غير آسف ، لانى لااصبو الى العيش فى دنيا زائلة فانية ، تذبل ذبول وردة عند لفح السموم ، دنيا كل مافيها مضطرب مشوّش مبهم ، فالذكرى الخالدة تبلى فيهاويعفو أثرها ، ويوم الهناء لاتبزغ فيه شمس ؛ ولا يعقبه غد

أيها اللهيب الذى يفترسنى ، أيها الرُوح ، أى شىء أنتَ ؟ هل ستحيا بعدى ؟ هل ستتألم اذا تركتك ؟ أيها الضيف الخفىّ المستتر ، ماذاسيحلّ بك بعد هجرى ؛ هل ستنضم الى مشعل النهار وتندغم فيه؟ اذ قد تكون شرارة ضئيلة من ناره ، أو شعاعاً تائهاً يرتد اليه ، ويعود الى مصدره ، أو عصارة نقية كونتها الارض ، أو طيناً نفخت فيه نسمة الحياة، أو صلصالا حيًّا مفكّراً ، . ولكن ماذا أرى ؛ لِمَ ترتعد فرَقاً؟ أتخشى العَدَم وأنت تَعِب من الآلام ؛ أتخاف الحياة وترتجف من الموت ؟

أيها اللغز الخفىّ ، من يحلك ، ويفسّر أحاجيك ؟ عَبَثاً أصغى الى أصوات حكماء العالَم ، فالشك قد تطرّق أيضاً الى هذه العقول الجبّارة اذ لم تخرج عن كونها مجبولة من صلصال كغيرها ، فمنذ الفى سنة ونيّف افنى سقراط عمره باحثاً منقّباً ، واحتذى حذوه افلاطون ، ولكن عبثاً وها أنذا اليوم أسعى وأبحث ولن أفوز بضالتى ، وستمضى ألوف السنين ، وبنو آدم يتخبطون فى الظلام الذى نحن فيه ، والحقيقة الشاردة بمنجاة من قبضة أيدينا ، والله وحده يجمع كل أشعتها المتفرقة

والآن وقد أوشكتُ أن أغمض عينى عن نور هذه الحياة ، فلا

أجد اقل أَمَل يواسيني في ساعتي الاخيرة ، فستسير رُوحي دون دليل ولا ضياء ، من ليل هذه الحياة الداجي ، الى ليل القبر الحالك ، حاملة الى العالم المجهول ، فضائلي دون أمل ، وآلامي دون ثواب .

أَجِبْني أيها القضاء الظالم الغشوم — اذا كان ثَمَّ شيء يسمي قضاء — اذ لي الحق المشؤوم ان العن شرائعك ، فبعد كدّ النهار وتعبه ، يحق للأجير أن يأوي الى ظلال الراحة والهدوء ويقبض كراءَه ، ولكني عندما أَنوء تحت حِمل القَدَر ، لايكون جزائي بعد مشقة الحياة وآلامها غير الموت !

* * *

ولكن بينما في يعبق بِنَتْنِ الشك والتجديف ، وعيناى تنظران الى قبرى ، وتبكيان على نفسي ، استيقظ فيّ الايمان كأنه ذكرى لطيفة ، والقى شعاعاً من الامل على مستقبلي الكالح ، فانعشني تحت ظل الموت والهب قواى ، واعاد الى أيامي العتيقة شباب النفس وريعانها ، فصعدتُ تحت ضوء هذا المِشعل المقدس ، من مغرب حياتي الى صباحها الضاحك ، وتجلّى أمامي حظ الانسانية جمعاء ، وتبدّى لناظري نظام الكون البديع وتسلسلَ اشيائه المنسجم ، وقرأت في صفحة المستقبل صواب الحاضر ، فاغلقَ الامل ورائي أبواب العَدَم ، فاتحاً الأفق لرُوحي النَّشْوَى ، ومفسِّراً بالموت لغز الحياة

وهذا الايمان الذكي ينتظرني على حافة القبر ، وا أسفاه ! لقد تذكرته : فقد حام فوق مهدي ، وهو الإرث الخالد لارض المَعاد ، يتركه الآباء للابناء من جيل الى جيل ، ويتقبّله عقلنا منذ يقظته الاولى ، عطية آلهية

كما يتقبل الحياة ونور الشمس ، فهو اللبن المغذّى للروح ، ينسكب من فم الام ، فيملأ جوانحنا ثقة ، وقلوبنا أملاً . يتغلغل الى الانسان فى فصله الغضّ ، فيشع نبراسه فى الفؤاد ، قبل أن ينفتق الذهن ويعيى العقل ، والطفل فى مهده لا يكاد يتلفظ بمخارج الكلام ، حتى يتمم قانونه السامى فينمو فى قلبه ، تحت رعاية الام الحنون ، جنباً الى جنب مع الفضيلة ؛ دون أن يشعر به حتى تتأصل جذوره ، فيورق ويثمر .

حبذا لو أن الحقيقة جُعِلَتْ لهذه الارض ، فقد عُرضت على أنظارنا منذ طفولتنا ، وتسللت الى نفوسنا من كل جهة ، عن طريق الحواس ، كما يتسلل الشعاع الطاهر ، من اللهيب السماوى ، فقد أحاطت بنفوسنا منذ انبثاق فجرها ، وانحدرت الى قلوبنا من مداركنا ، فانضمت لتذكاراتنا ، وذابت فى أخلاقنا ، كحبّة مخصبة يُدثّرها الشتاء ، فتنبت فى أفئدتنا طويلا قبل أن تفرخ ، حتى اذا جاوز الانسان صيفه المملوء اعصاراً برزت أغصانها ، وتفتحت اكمامها ، واينعت اثمارها الالهية للخلود .

أيتها الشمس السرية ، مصباح العالم الآخر ، أعيرى عينىَّ المطفأتين نورَك الرمزى . إنبعثْ من احضان العلىّ أيها الشعاع المعزّى ، أشرقْ فى قلبى أيها الكوكب المحيى . لهفَ نفسى ، ليس لي غيرك فى ساعاتى العصيبه ، فهذا العقل الانساني سراج ضئيل ، يخبو كالحياة على أعتاب القبر ، فتعالَ لتحل محله أيها النور السماوى ، تعالَ لتفيض على جفنىّ يوماً لاسحاب فيه أعضْنى عن الشمس التى لن أراها فيما بعد وأَنِرْ الافق كما ينير كوكب المساء ، لأحظى بحياة سرمدية خالده ، برهتها آجال ، وهنيهتها اجيال .

طنطا

نصيف جورجى نيقولاوس